اختلال أحوال المرابطين في المغرب والأندلس
(قراءة متأنية في مسببات السقوط والتلاشي)

Disturbance of Almoravid conditions in Maghreb and Andalusia, careful reading of the causes of the fall and disappearance .

CHAKI ABDELAZIZ

عبد العزيز شاكي*

أستاذ محاضر قسم أ

قسم التاريخ

جامعة محمد بوضياف - المسيلة - (الجزائر)

البريد الالكتروني: abdelaziz.chaki@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2018/05/31 تاريخ القبول: 2020/01/14 تاريخ النشر: 2021/06/28

ملخص :

شكلت دولة المرابطين في بلاد المغرب والأندلس أنموذجا رائعا في نشر الإسلام الصحيح والدفاع عن المسلمين في الأندلس من خطر القوات النصرانية ، غير أنها بدأت تضعف شيئا فشيئا إلى أن سقطت سنة 541 هـ بفعل عدة عوامل داخلية مثل ضعف شخصية الحكام المتأخرين وظهور الصراع بينهم على الحكم ، وكذا تسامح الأمير علي بن يوسف مع بعض الثورات والمتمردين ، وانتشار الفساد الأخلاقي في المجتمع المرابطي ، وكذا ظهور أزمات اقتصادية ، ناهيك عن العوامل الخارجية التي أدت إلى ضعف الدولة وسقوطها مثل كثرة الثورات والتمرّدات في المدن الأندلسية ، بالإضافة إلى طول الصراع المرابطي النصراني الذي أنهك الجيش المرابطي ، واهم سبب مباشر هو ثورة الموحدين التي بدأت تتوسع إلى أن تمكن الموحدون من دخول العاصمة مراكش والقضاء على ملك دولة المرابطين .

الكلمات المفتاحية باللغة العربية : المرابطون ، الأندلس ، المغرب ، النصارى ، علي بن يوسف ، ثورة الموحدين.

عبد العزيز شاكي*: abdelaziz.chaki@univ-msila.dz

Abstract:

The state of Almoravid in Maghreb and Andalusia set a good example by bringing forth the right Islam and defending the Muslims there against the Christian forces. However, it begins to get weakened until it is declined in 541 AH. The factors of the decline were multiple: the absence of personality to the governors, the life of debauchery and the passivity of the emirs, the conflict about the sovereignty, the tolerance of the emir Ali Bin Yousef with the rebellion threatening the state in parallel with the economic crisis that hit the state. Not to mention external factors such as revolutions and insurrections in the Andalusian cities. The army of the Almoravids has been weakened by the confrontation of Christians. But the main cause was the revolution of the Almohads who attacked and captured the city of Marrakech and defeated the monarch of the Almoravids.

Key Words : Almoravid , Maghreb , Andalusia , Christian , Ali Bin Yousef , revolution of the Almohads .

Résumé :

L'état d'Almoravide en Maghreb et en Andalousie a donné un bon exemple en faisant paraître l'Islam droit et en défendant les musulmans là-bas contre les forces chrétiennes. Toutefois, il commence à s'affaiblir au fur et à mesure qu'il se décline en 541 Hégire. Les facteurs du déclin étaient multiples: l'absence de personnalité chez les gouverneurs, la vie de débauche et la passivité des émirs, le conflit au sujet de la souveraineté, la tolérance de l'émir Ali Bin Yousef avec la rébellion menaçant l'état en parallèle avec la crise économique qui frappa l'état. Sans parler des facteurs externes tel que les révolutions et les insurrections au niveau des cités andalouses. L'armée des Almoravides a été affaiblie par la confrontation des chrétiens. Mais la cause principale était la révolution des Almohades qui ont attaqué et pris la cité de Marrakech et battu le monarque des Almoravides.

Mots clés : Almoravide ,Maghreb , andalouses , chrétiennes , Ali Bin Yousef , révolution des Almohades .

مقدمة :

تعتبر دولة المرابطين اللمتونيين احد النماذج الناجحة في الغرب الإسلامي ، فقد شكلت طاقة نافعة للد فاع عن الأندلس وحماية حوزة الإسلام بهذه البلاد ، ليس هذا فحسب ، إنما يعزى إليها كذلك إعادة نشر تعاليم الإسلام الصحيحة في عدة مناطق من المغرب الأقصى ، التي غدت خارجة عن فلك الإسلام الصحيح على شاكلة برغواطة (1) أو جبال غمارة (2) ،كما شكلت درعا منيعا في وجه الأطماع النصرانية في الجغرافية الإسلامية الأندلسية ، مساهمة في ذلك في فرملة حركة الاسترداد المسيحي وتمديد عمر الإسلام هناك ، حيث انتصرت في عدة معارك حاسمة على نصارى شبه الجزيرة الأيبيرية ، لكن ذلك لم يمنع من دخول هذه الدولة الفتية في دوامة من المشاكل أنهكت قوتها وأدت إلى تراجع مكانتها خاصة في بلاد الأندلس ، فيا ترى ما هي العوامل الحقيقية وراء تهاوي سلطان المرابطين ؟ وهل هذه العوامل هي نتاج ضعف ذاتي داخلي متعلق بمنظومة الحكم وساسة الدولة ؟ ، أو نتاج مؤثرات خارجية لا دخل للمرابطين فيها ؟

1.أسبابات السقوط والانهيار:

1.1 أولا: انغماس بعض حكام دولة المرابطين في الملذات (3) ، وظهور روح السكون عند بعض الأمراء مما سمح باستيلاء النساء على زمام الأمور، وأدى ذلك إلى اختلال أمور الدولة ، حيث يذكر عبد الواحد المراكشي أن أحوال المرابطين اختلت اختلالا شديدا بعد المائة الخامسة ، ونقل لنا ذات المؤرخ مادة خبرية صريحة عن هذا الواقع بقوله : «واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير ، وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور (بيت دعارة) وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه» (عبد الواحد المراكشي ، 1998 ، ص 126) .

2.1 ثانيا: ظهور صراع جلي بين حكام الدولة المرابطية في أواخر أيامها ، حيث بايع الناس إبراهيم بن تاشفين غير أن عمه إسحاق بن علي رفض هذه البيعة ودعا لنفسه ووقع الخلاف والتناحر بينهما مما أضعفهم واسقط حكمهم على يد الموحدين . (ابن عذاري ، 1983، ج4، ص105 ؛ مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، 1979 ، ص 135) .

وقد ذكر ابن عذاري ذلك بقوله : « وذلك انه لما مات تاشفين ... بويع لابنه إبراهيم بن تاشفين ، فطلع عليه إسحاق إلى مراكش فنقض بيعته ودعا لنفسه ، ووقع الخلاف والتدابر بينهم إلى انقطاع دولتهم ودخول الموحدين عليهم » (ابن عذاري ، 1983، ج4، ص105)، وهذا ما يحيلنا إلى إدراك ذلك الخلاف المشين على السلطة التي صارت ضعيفة أصلا وهو ما زاد الأمور تعقيدا إضافيا وشرخا في البيت الحاكم .

3.1 ثالثا: طبيعة شخصية علي بن يوسف (حكم 500 هـ - 537 هـ) (4) المتسامحة واللينة ، فقد كان أمير المسلمين متسامحا مع الحركات التي ظهرت في دولته مثل حركة المريدين (5) أو ثورة قرطبة التي

كانت سنة 515 هـ / 1121 م (مجهول ، الحلل الموشية ، 1979 ، ص ص 86 - 87) (6) والتي تم حلحلتها بالطرق الودية ، ودفع أهل قرطبة تعويضا من المال لأمير المسلمين علي بن يوسف جراء الخسائر التي لحقت بالمرابطين المقيمين في قرطبة (مجهول ، الحلل الموشية ، 1979 ، ص 86 ؛ يوسف أشباخ ، 1996 ،ج 1 ، ص 153) ، وبذلك يتضح أن أمير المسلمين لم يكن ميالا لسفك الدماء أو التسلط ، وأن تسامحه كان دائما يسبق قراراته ، وقد وصفه صاحب الاستقصا بقوله : « وكان ملكا عظيما حليما ورعا عادلا متواضعا » (السلاوي ، 1994 ، ج 1 ، ص 132) .

بل وصل التسامح بأمير المرابطين علي بن يوسف حد التساهل مع المهدي بن تومرت رغم التوجس الذي أبداه المقربون من بلاط الأمير المرابطي ، فقد تم عقد مناظرة فقهية بين ابن تومرت وفقهاء المرابطين تغلب فيها المهدي (البيذق ، 1971 ، ص27) (7)، ولما رأى الفقهاء من قوة المهدي وتغلبه عليهم قالوا لأمير المرابطين : « هذا رجل خارجي مسعور أحمق ، صاحب جدل ولسان يضل جهال الناس وإن بقي بالمدينة يفسد عقائد أهلها وينشر ذلك عن الناس حتى يرسخ ذلك في قلوب أكثر العامة »(ابن أبي زرع ، 1972 ، ص 175) (8) .

لقد أشار الفقيه مالك بن وهيب على أمير المرابطين بقتله إلا أن ورعه وتقواه منعاه من ذلك (عبد الواحد المراكشي ، 1998 ، ص131)، ثم أشار عليه بسجنه (البيذق ، 1971 ، ص28 ؛ عبد الواحد المراكشي، 1998 ، ص131 ؛ ابن خلدون ، 2000 ، ج6 ، ص304 ؛ ابن خلكان ، 1994 ،ج5، ص50 ؛ السلاوي ، 1994 ، ج2 ، ص76) (9)، حيث علق على ذلك البيذق بقوله: « فقال الفقيه ابن وهيب لعلي بن يوسف ثقفه يا أمير المرابطين لأن هذا هو صاحب الدرهم المركن واجعل عليه كبلا (أغلالا)كي لا تسمع له طبلا » (البيذق ، 1971 ، ص27 ؛ الزركشي ، 1966 ، ص ص 5 - 6 ؛ ابن الأثير ، 1987 ، ج 9 ، ص 196) (10) ،فأمر أمير المرابطين علي بن يوسف أبا بكر بن تيزمت (ابن عذاري ، 1985 ، ج 5 ، ص29) (11) .أن يحمله إلى السجن، فقام ينتيان بن عمر وسيرين وريبل وقالا له: « يا أمير المسلمين ماذا يقال عنك في البلاد وأنت تسجن رجلا يعرف الله وهو اعرف أهل الأرض بالله ؟ فغضب أمير المرابطين علي بن يوسف وخرج عنهم ، فقام ينتيان بن عمر وحمله إلى داره ، ورجع هذا الأخير إلى أمير المرابطين معاتبا إياه على سجن عالم من علماء المسلمين » (البيذق ، 1971 ، ص28) ، فقال له علي بن يوسف يا عمر لقد اخبرني الفقهاء إن خراب دولتنا يكون على يديه ، فرد عمر على أمير المرابطين قائلا له: «يا أمير إن كان خراب دولتنا على يديه فقد خرجت قبل رؤيتنا إياه، ثم قال علي بن يوسف لعمر :مره أن يخرج من بلادنا» (ابن الأثير ، 1987 ، ج9 ، ص196 ؛ البيذق 1971 ، ص28 ؛ الدواداري ، 1972، ص23 ؛ ابن أبي زرع ، 1972، ص175 ؛ ابن خلدون ، 2000 ، ج6 ، ص304) (12) .

إن تسامح أمير المرابطين مع المهدي بن تومرت كان خطئا جسيما، فقد كان انقراض دولته علي يدي حركة الموحدين التي أوقد جذوتها المهدي بن تومرت ، ولو تعامل علي بن يوسف بشيء من الصرامة مع ابن تومرت ما كانت الأمور – في اعتقادنا – تؤول إلى ما آلت إليه.

4.1 رابعا: انغماس المرابطين في الترف والرفاهية والرقة مع مرور الأيام ، حيث أن هذا الإقبال على الترف ومظاهر الدنيا خفف من جفوة المرابطين وخشونتهم التي كان يعتز بها يوسف بن تاشفين عند مقارنتهم بالأندلسيين ، وسرعان ما نسي هؤلاء - في غمرة هذه الحياة الجديدة - المبادئ الأولى التي قامت عليها حركة المرابطين ، وبالتدريج فقد الملثمون الصفات التي جعلت منهم رجال حرب مظفرين ، فتدهور حال الجيش المرابطي بالأندلس (سالم ، 1981 ، ج 2 ، ص 738).

وتو ِدنا المصادر الخبرية ببعض ما آلت إليه سوء أحوال المرابطين في سياق الحديث الدائر بين أمير المرابطين والمهدي بن تومرت فقد ذكر لنا صاحب روض القرطاس أن المهدي كان يجوب أسواق المدينة وشوارعها ويريق الخمر ويكسر آلات الطرب من غير إذن أمير المرابطين أو القضاة أو الأمراء ، فأرسل علي بن يوسف لإحضاره فدار بينهما الحوار الآتي: « فلما مثل بين يديه نظرا إلى تقشفه ورثاثة حاله ،فاستحقره ،وهان عليه أمره، وقال له : ما هذا الذي بلغنا عنك ؟ قال: وما بلغك أيها الأمير ؟ إنما أنا رجل فقير طالب للآخرة ولست بطالب دنيا ولا حاجة لي بها (13)، غير أني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأنت أولى من يعرف ذلك ، فإنك المسئول عنه وقد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة وقد ظهرت بملكك المنكرات وفشت البدع وقد أمرك الله بتغييرها و إحياء السنة بها.إذ لك القدرة على ذلك (14) وأنت المأخوذ به والمسئول عنه وقد عاب الله تعالى قوما تركوا النهي عن المنكر...فلما سمع أمير المرابطين علي بن يوسف من مقالته هابه وأطرق برأسه إلى الأرض مليا يفكر في أمره ومقالته و ينظر إلى حاله » (ابن أبي زرع ، 1972 ، ص174) .

5.1 خامسا: مرور دولة المرابطين بأزمات اقتصادية وأخلاقية ، فأما الأولى فقد إنحبس المطر سنوات وحل الجفاف والقحط بالمغرب والأندلس ، وما زاد تفاقم الأزمة هي أسراب الجراد التي أتت على الأخضر واليابس مما جعل الأوبئة تنتشر بين كثير من السكان خاصة السنوات المنحصرة بين 524 هـ - 530 هـ /1130 م / 1135م (الصلابي ، 2007 ، ص 182) ، كما أثرت هذه الأزمات على البنية الديمغرافية وشكلت بذلك تحديا آخر للسلطة الحاكمة (15) .

وأما الثانية فهي تلك الأزمات الأخلاقية التي انتشرت في المجتمع المرابطي ، فقد نقلت لنا المصادر الإسلامية الحوار الذي جرى بين أمير المسلمين علي بن يوسف والمهدي بن تومرت ، حيث أعاب هذا الأخير على المرابطين انتشار عدة مناكر (ابن الأثير ، 1987 ، ج 9 ، ص 196) في بلادهم وقال لهم : « إن الخمرة تباع جهارا ، وتمشي الخنازير بين المسلمين ، وتؤخذ أموال اليتامى ؟ وعدد من ذلك شيئا كثيرا» (ابن خلكان ، 1994 ، ج 5 ، ص 49 ؛ السلاوي ، 1994 ، ج 2 ، ص 76)، أما صاحب المعجب فيؤكد ذلك بقوله : «فظهرت في بلاده (علي بن يوسف) مناكر كثيرة » (عبد الواحد

المراكشي ، 1998 ، ص 125) وأكمل قوله بأن علي بن يوسف كان متغافلا عن ذلك بل وأطلق عليه لقب «امرأة المسلمين»(16)، ويواصل في وصف ذلك بقوله : « وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال ، فاختل لذلك عليه كثيرا من بلاد الأندلس ، وكادت تعود إلى حالها الأول لاسيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس» (عبد الواحد المراكشي ، 1998 ، ص 125).

6.1 **سادسا:** طول مدة الصراع المرابطي مع ممالك النصارى في شبه الجزيرة الأيبيرية وتعدد جبهاته، حيث كانت قوى أراغون وقشتالة والبرتغال وقطلونية كلها سيفا مسلطا على الجيش المرابطي (سالم ، 1981 ، ج 2 ، ص 740)، كما أنهم استعانوا بقوى من الخارج مثل الفرنجة حيث يؤكد يوسف أشباخ أنه : «لم يكن في وسع النصارى المعاهدين أن يقوموا في الأندلس بشيء دون معاونة من الخارج» (أشباخ ، 1996 ، ج 1 ، ص 154)، ضف إلى ذلك أن البابوية كانت تبارك حروب النصارى مع المسلمين مما ساهم في إذكاء روح الحقد لدى الجيوش النصرانية ، وعلى أية حال فقد طال أمد الصراع المرابطي النصراني في الأندلس فانتصر المرابطون في معارك مثل وقعة الزلاقة 479 هـ (مجهول : الحلل الموشية ، 1979 ، ص 56 وما بعدها ؛ عبد الواحد المراكشي ، 1998 ، ص 94 وما بعدها ؛ ابن أبي زرع ، 1972 ، ص 145 وما بعدها) ووقعة قُليش 501 هـ (ابن أبي زرع ، 1972 ، ص 160 ؛ ابن القطان ، 1990 ، ص 63 وما بعدها ؛ السلاوي ، 1994 ، ج 1 ، ص 124) وفحص البكار سنة 528 هـ (ابن القطان ، 1990 ، ص 241 ؛ ابن عذاري المراكشي ، 1983 ، ج 4 ، ص 91) وانهزموا في أخرى مثل موقعة القلاعة سنة 523 هـ (ابن القطان ، 1990 ، ص 154) ، وهو ما يحيلنا إلى إدراك مدى فداحة الخسائر التي شهدتها المؤسسة العسكرية المرابطية وبالتالي إنهاك قوتها وتلاشي صلابتها .

7.1 **سابعا:** الفلتان الأمني الواقع في الأندلس من ثورات وتمردات وفتن ، فقد شهدت الحواضر الأندلسية حالة من الفلتان الأمني الذي شكل عبئا آخر على السلطة حيث جعلها تصرف كثيرا من الجهد لإعادة الأمن إلى الحواضر المرابطية .

من أمثلة تلك الثورات ثورة المريدين (17) المتصوفة التي قادها ابن قسي والتي أورثت حالة من اللاستقرار ناهيك عن الفوضى والخراب الذي نقل لنا ابن سعيد المغربي جزءا منه بقوله : ومما جاء في هذه الرسالة في الصفحة الموالية ما يلي « أنه قد عمت الزرايا والمصائب وشملت الفتن المشارق والمغارب، وهلك فيها إلا ما شاء الله الشاب والشائب، وعادت زاهرات الأمصار موحشة خرائب، وعامرات الأقطار مقفرة سباسب، بما كسبت أيدي الناس ، ولولا حلم الله وإمهاله ليتوب إليه عبيده، ويرجع عما يكرهه إلى ما يريده ، لكان الإبلاس ولرفع من الرحمة المساس » (ابن سعيد المغربي ، 1995 ، ج1 ، ص ص 352 - 353).

ومن الثورات الأخرى تلك التي قادها قضاة الأندلس (18) والتي أدخلت الأندلس في حالة من الشقاق والتناحر خاصة وان مفجري هذه الثورات من نخبة المجتمع الأندلسي وهو ما جعل التبعة أكثر ، ناهيك عن بعض الاضطرابات ذات الطابع الاجتماعي مثل ثورة قرطبة سنة 514 هـ والتي زعزعت

كيان المرابطين وجعلت الأمير على بن يوسف يجوز البحر بنفسه لإخمادها (مجهول ، الحلل الموشية ، 1979 ، ص 86 ؛ ابن الأثير ، 1987 ، ج9 ، ص 188 ؛ النويري ، 2004 ، ج 24 ، ص 151 ؛ ابن القطان ، 1990 ، ص 78)، أو الثورة التي قامت بها العامة في قرطبة ضد اليهود (ابن عذارى ، 1983 ، ج4 ، ص 93 ؛ ابن القطان ، 1990 ، ص 243) ، أو الفوضى الواقعة في غرناطة على شاكلة التمرد الذي أخمدته السلطات المرابطية والذي تسبب فيه الوالي أبو عمر يناله باعتقال طائفة من الفقهاء والعلماء وهو ما ذكره ابن عذاري صراحة بقوله : «وكان أبو عمر يناله استدعى فقهاء وعلماء من أهل جيان فما حضروه أمر بسجنهم ظلما واعتداء » (ابن عذارى ، 1983 ، ج4 ، ص 75) ، ناهيك عن التشديد على الناس في دفع الأموال لبناء أسوار المدينة وبذلك لمسنا نوعا آخر من أشكال تسلط هذا الحاكم على رعيته ، حيث ذكر ابن عذاري قوله : «وهيب يناله فكان الناس يخافونه لضغطه وشدته، وكمل السور في أقرب وقت، وكان حاطب ليل، وبعض البنائين غثاء سيل، لأوفوا التأسيس ولا قوموا الترصيص » (ابن عذارى ، 1983 ، ج4 ، ص ص 73-74) .

وعلى أية حال كان تدخل السلطات المرابطية على مستوى تطلعات الرعية إذ تم تخليص الناس من تجاوزات هذا الوالي وكذا مصادرة أموال كاتبه اليهودي الذي داهمت الرعية داره وإنتهبتها (ابن عذارى ، 1983 ، ج4 ، ص ص 77)

ومن أشكال الفلتان الأمني تلك الانتفاضة الواقعة في اشبيلية سنة 529 هـ ، حيث ثارت العامة ضد القاضي ابن عربي الذي فيما يبدو كان صارما ضد الفسقة (ابن فرحون ، 1996 ، ص 378 ؛ ابن القاضي ، 1973 ، ج1 ، ص 261 ؛ النباهي ، 1983 ، ص 106 ؛ المقري ، 1988، ج2 ، ص 27 ؛ ابن عذارى ، 1983 ، ج4 ، ص 93) أو ربما السبب الذي قدمه لنا المقري بقوله : « وما برح معظما إلى أن تولى خطة القضاء ، ووافق ذلك أن احتاج سور اشبيلية إلى بنيان جهة منه ، ولم يكن فيها مال متوفر، ففرض على الناس جلود ضحاياهم، وكان ذلك في عيد الأضحى، فأحضروها كارهين ، ثم اجتمعت العامة العمياء ، وثارت عليه ونهبوا داره » (المقري ، 1988 ، ج2 ، ص 27) .

وعلى أية حال شكلت هذه الفوضى الواقعة في العدوة الأندلسية بشكل عام - رغم وجود بعض منها في الجغرافية المغربية - (19)، تحديا آخر للسلطة المرابطية جعلتها تصرف كثيرا من الجهود لإعادة الأمن للحواضر المرابطية التي صارت متهاوية متهالكة في نهايات العهد المرابطي .

ثامنا: ضعف دولة المرابطين من جراء الثورة التي قام بها محمد بن تومرت ، وواصلها عبد المؤمن بن علي الكومي الندرومي ، وقد وصفها يوسف أشباخ بقوله : « وما كاد ينتهي من إخماد هذه الثورة (ثورة قرطبة) حتى اضطرمت في أفريقية ثورة أخطر وأبعد أثرا ، واستغرقت كل اهتماماته وقواه ، فلم يتح له أن يولى شؤون الأندلس كثيرا من عنايته»(أشباخ ، 1996 ، ج 1 ، ص 153).

ويعتقد الأستاذ حسن علي حسن أن شخصية ابن تومرت لعبت دورا بارزا في تأليب المصامدة على المرابطين ، مما أدخلهم في صراع مستمر معهم وأنهك قوى المرابطين العسكرية (حسن علي حسن ،

1980 ، ص 44) (20)، وبعد وفاة المهدي بن تومرت سنة 524 هـ (ابن القطان، 1990 ، ص 167 ؛ البيذق، 1971 ، ص42 ؛ ابن أبي زرع ، 1972 ، ص180 ؛ مجهول ، الحلل الموشية ، 1979 ، ص117 ؛ ابن خلكان ، 1994 ، ج5 ، ص53 ؛ الزركشي ، 1966 ، ص07) توهجت الثورة واضطرمت أكثر بقيادة عبد المؤمن بن علي الذي صارت جيوشه تجتاح المدن المرابطية الواحدة تلوى الأخرى حتى تمكنوا من اقتحام مراكش سنة 541 هـ (البيذق ، 1971 ، ص65 ؛ مجهول : الحلل الموشية ، 1979 ، ص138 ؛ عبد الواحد المراكشي ، 1998 ، ص143 ؛ ابن عذاري ، 1985 ، ج5 ، ص28 ؛ ابن أبي زرع ، 1972 ، ص190؛ ابن خلدون ، 2000 ، ج6 ، ص310 ؛ ابن الأثير ، 1987 ، ج9 ، ص205 ؛ السلاوي ، 1994 ، ج2 ، ص98) ، وبعد استيلاء الموحدين على مراكش وفدت جميع القبائل من المصامدة بأسرها وإستوثق أمر المغرب لعبد المؤمن بن علي ولم يبق له منازع (ابن أبي زرع ، 1972 ، ص189)، وبذلك كان أفول نجم المرابطين على يد خلفائهم الموحدين .

خاتمة :

إن اجتماع هذه المسببات والعوامل - وأخرى- جعل من القوة المرابطية تتهاوى وتنهار شيئا فشيئا ، ولعل ذلك ما جعل ابن الخطيب يعلق على ذلك بقوله : « ولما اضطرب أمر المرابطين من لمتونة بالأندلس وضعفوا وكثرت الفتن والثوار واغتنم العدو ذلك فإستولى على البلاد واشتهر ظهور الدولة المؤمنية والطائفة المهدية بالمغرب وافتتحوا دارا لملك مراكش واستأصلوا أرباب الأمر تعلقت آمال المسلمين بهم واستصرخهم الناس وثاروا بمن ببلادهم من المرابطين سوء جوار وحبا في الإدالة وتبدل الملوك » (ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، 1956 ، ص 265) ، لكن يبقى تنامي القوة الموحدية وسقوط الحواضر المغربية في فلكها يوما بعد الآخر هو السبب المباشر في الانقضاض على ملك المرابطين في المغرب ، والذي أفضى إلى أفول نجمهم دونما اندثار لإعمالهم التي بقيت الكتابات التاريخية تذكرها بكل خير.

التعليقات :

(1)من هذه الانحرافات الدينية ما نقله لنا البكري بقوله : « وأما هذا الضلال الذي شرع لهم فإنهم يقدمون على الإقرار بالنبيين (الأنبياء)، الإقرار بنبوة صالح بن طريف وبنبوة من تولى الأمر من بعده من ولده، وأن الكلام الذي ألف لهم وحي من الله تعالى لا يشكون فيه، وصوم رجب وأكل شهر رمضان وخمس صلوات في اليوم وخمس صلوات في الليلة والتضحية في اليوم الحادي عشر من محرم، وفي الوضوء غسل الصرة والخاصرتين ثم المضمضة وغسل الوجه ومسح العنق والقفا » (البكري ، د . ت ، ص ص 138- 139).

(2)يورد لنا صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار بعض الانحرافات الدينية التي شهدتها منطقة جبال غمارة حيث يقول: « ولأهل هذا الجبل مذاهب شتى، وسير مختلفة وقد تنبأ عندهم إنسان يعرف بـ «حاميم بن من الله » ولقب بالمفتري ، والجبل الذي تنبأ فيه ينسب اليهو هو جبل حاميم على مقربة من

تيطاوان ، وأجابه بشر كثير من غمارة، وأقروا بنبوته، ووضع لهم قرآنا بل شريعة إستهواهمبرخسها، فرد لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها، ويسجدون على ظهور أكفهم، ووضع لهم قرآنا بلسانهم تفسيره ، خلي من الذنوب يا من يخلي النظر ينظر في الدنيا ، خلي من الذنوب يا من اخرج موسى من البحر ، وفيه : آمنت بحاميم وآمنت بأبي يخلف...وآمنت بتاليت...وكان حاميم فرض عليهم صوم يوم الخميس كله، وصوم يوم الأربعاء إلى الظهر، فمن أكل فيهماءغوم خمسة أثوار لحاميم ووضع لجميعهم صوم 27 يوما من رمضان، وجعل عيدهم في ثاني يوم فطرهم » . (مؤلف مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، 1986 ، ص 191).

(3)ذكر الخوارزمي في كتاب السلطان وأسرار الوزارة أن من الأسباب المانعة للسلطة « قلة المبالاة في الدين والمذهب ... وعلوم الرأي ».(الخوارزمي ، 2001 ، ص 24).

(4)ممن ترجموا لحياة الأمير المرابطي علي بن يوسف : (ابن أبي زرع ، 1972 ، ص 157 وما بعدها ؛ مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، 1979 ، ص 84 وما بعدها ؛ عبد الواحد المراكشي ، 1998 ، ص ص 121 – 122 ؛ الذهبي ، 1985 ، ج 20 ، ص ص 124 - 125 ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، 1977 ، ج 4 ، ص ص 58 - 59).

(5)ظهرت هذه الحركة على يد حشد من الصوفية الفقراء وكان ابن برجان هو شيخ الصوفية في الأندلس ، وقد دخلت في صراع مع المرابطين مع بداية 529 هـ / 1134 م ، وفرضت عليهم الدولة المرابطية المراقبة .ولكن هذه الثورة لم تبدأ فعليا إلا بعد وفاة علي بن يوسف . وكان بإمكانه القضاء عليها وهي في مهدها . (عصمت عبد اللطيف دندش ، 1988 ، ص . ص 49 – 71) .

(6)ويفصل صاحب الحلل الموشية في ذكر ثورة قرطبة بقوله : « وفي سنة خمس عشر وخمسمائة للحادث الواقع بقرطبة ، وذلك أن أهل قرطبة كان قدم عليها الأمير أبو يحيى بن رواد فحدث بينه وبين أهلها ما أوجب قيامهم عليه ، وحدث بين أهلها ما كان فيها من المرابطين فتنة كبيرة ، ونهبوا دورهم وقصورهم ، فبلغ ذلك علي بن يوسف ... وجاز إلى الأندلس ... فاحتل بخارج قرطبة ، فغلقوا أبوابهم ... واستعدوا لقتاله ... ولما طال مقامه عليها ، تردد إليه وجوه قرطبة وأعيانها وذكروه بوصية أبيه ... فوقع الاتفاق على أن يؤدوا له مالا عوضا عما نهب للمرابطين ، فرضي ورضوا » (مجهول ، الحلل الموشية ، 1979 ، ص ص 86 - 87) .

(7)وقد وصف البيذق تغلب المهدي بن تومرت على فقهاء المرابطين أثناء هذه المناظرة الفقهية بقوله : « ودخل مع الفقهاء بالمذاكرة حتى قهرهم القهر الكلي » (البيذق ، 1971 ، ص27) .

(8)وصف ابن أبي زرع الفاسي حالة الفقهاء المرابطين في هذه المناظرة بقوله : « فبهرهم بطريق أنوار العلم ، وغلقت دونهم أبواب الفهم وعجزوا عن جوابه، ولم يفهموا له معنى خطابه، فلما رأوا باهر علمه وإصابة معرفته أخذتهم فضيحة العجز، وركنوا إلى ظلمة الجحد والإنكار » (ابن أبي زرع ، 1972 ، ص 175).

(9)وعلق السلاوي على ذلك بقوله : « فلما سمع الملك (علي بن يوسف) كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء...فقال له وزيره يقبح بك أن تبكي من موعظة رجل ثم تسيء إليه في مجلس واحد وأن يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لا يملك سد جوعته » (السلاوي ، 1994 ، ج2 ، ص76) .

(10)وعن ذلك يقول الزركشي « وكان قاضي مراكش مالك بن وهيب حذر منه الأمير علي بن يوسف بأنه كان ينظر في النجوم وقال له احتفظ على الدولة من الرجل و اجعل على رجله كبلا لئلا يسمعك طبلا لأنه أظنه صاحب الدرهم المربع فبعث علي بن يوسف الخيل في طلبه ففاتهم وادخل عامل السوس وهو أبو بكر بن محمد اللمتوني بعض أهل هرغة في قتله ونذر بهم إخوانهم فنقلوه إلى معقل امتناعهم وقتلوا من دخل في قتله » . الزركشي ، 1966 ، ص ص5- 6 ؛ ويتوافق ابن الأثير مع قول الزركشي ويبدى قلق الفقيه مالك بن وهيب صراحة من تعاظم دعوة المهدي بقوله: « وكان عند أمير المسلمين بعض وزرائه يقال له مالك بن وهيب فقال يا أمير المسلمين إن هذا والله لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما يريد إثارة فتنة والغلبة على بعض النواحي فأقتله وقلدني دمه فلم يفعل ذلك، فقال إذا لم تقتله فأحبسه وخلده في السجن وإلا أثار شرا لا يمكن تلافيه » . ابن الأثير ، 1987 ، ج9، ص196.

(11)وعند سقوط مراكش بيد الموحدين حمل أبو بكر بن تيزمت إلى أميرها عبد المؤمن بن علي فقال له لماذا تقتلني قال لأنك يوما من الأيام أردت أن تحمل المهدي بن تومرت إلى السجن وثم قتله سنة 541هـ/1146م. ابن عذاري ، 1985 ، ج 5 ، ص29) .

(12)وقد اكتفى ابن أبي زرع بالقول أن علي بن يوسف أمر المهدي من الخروج من مراكش. أما ابن خلدون أخبرنا أن علي بن يوسف طلب المهدي مرة أخرى ففقده وهذا دليل على رحيله من مراكش. (ابن أبي زرع ، 1972، ص175 ؛ ابن خلدون ، 2000 ، ج6 ، ص304) .

(13)وهو ما يتوافق مع ما وجدناه في عديد المصادر التي تحدثت بإسهاب عن ورع المهدي بن تومرت ونسكه متقشفا ومخشوشنا مقبلا على العبادة ، لا يصحبه من متاع الدنيا سوى عصى وركوة. وأنه كان شديدا على الناس في كل ما يخالف الشرع ولا يقنع في أمر الله بغير إظهاره وكان يتلذذ بذلك . ابن خلكان: المصدر السابق، ج6، ص46؛ غير أن ابن أبي زرع يمدحه تارة بقوله أنه عالما فقيها راويا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم عارفا بالأصول عالما في الإعتقاد ثم يرجع إلى ذكر صفاته الذميمة تارة أخرى بقوله أنه سفاكا للدماء دفن الناس وهم أحياء لأجل إظهار كرامات زائفة له لكي يصدقه الناس (ابن أبي زرع ، 1972 ، ص181) .

(14)واستدل المهدي بن تومرت على ذلك من القرآن الكريم وتلا قوله تعالى « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون »(سورة المائدة ، الآية 79)، وقد عثرنا في احد النصوص الأدبية القريبة من عصر المهدي بن تومرت حيث تعود إلى صاحبها أبي زيد الفازازي الأندلسي (توفي 627 هـ / 1230م) والذي أكد أن المهدي بن تومرت هو مصلح وداعية وهو ما يتماشي مع سياق حديثنا هذا حيث يقول :

« والرضى على الإمام المهدي مبيد المبطلين بعد اشتداد أهوائهم وامتداد مهاويهم ومعيد الحقائق إلى أهلها حين احتياج منایاهم واقتراح أمالهم ، والدعاء لسادتنا ... المقتفين لسنته الواضحة ». (أبو زيد الفازازي ، 1991 ، ص 136).

(15)تحدث عن هذا التأثير حسن بولقطيب (حسن بولقطيب ، 2002 ، ص . ص 18 ، 19 ، 50).

(16)يبدو أن هذا اللقب - في رأينا - لا يليق بمقام الأمير المرابطي علي بن يوسف الذي كان متسامحا ورعا تقيا حتى أن عبد الواحد المراكشي بنفسه يعترف بأن أمير المسلمين علي بن يوسف كان عابدا متبتلا صوامالنهار قواما لليل ويضيف أنه كان مشهورا بذلك (عبد الواحد المراكشي ، 1998 ، ص 125).

(17)إن الحديث بإنصاف عن ثورة المريدين يبقى رهينا بالحصول على مؤلفات تطرقت لها بإسهاب ، غير أن هذه المؤلفات باتت في حكم المفقود ولم نعرف عنها شيئا سوى من خلال إشارات المؤرخين لها ومنها :كتاب ثورة المريدين لإبن صاحب الصلاة ، كتاب السفر الأول من كتاب المن بالإمامة لإبن صاحب الصلاة ، كتاب احمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن ابن عميرة المخزومي توفي 656 هـ / 1163 م ، كتاب الأنوار الجليلة في أخبار الدولة المرابطية لإبن الصيرفي أبو بكر يحي بن محمد الأنصاري الغرناطي توفي 557 هـ / 1174 م ، كتاب تقصي الأنباء في سياسة الرؤساء لابن الصيرفي ، كتاب عبرة العبر وعجائب القدر في ذكر الفتن الأندلسية والعدوية بعد فساد الدولة المرابطية لمحمد ابن احمد بن عامر السالمي توفي 559 هـ / 1163 م ، كتاب الفتنة الكائنة على اللمتونيين بالأندلس سنة أربعين وما يليها قبلها وبعدها ، لمحمد بن احمد بن عامر السالمي ؛ بيد أن مصادر أخرى نقلت لنا بعض أخبار هذه الثورة على شاكلة ابن الخطيب أو ابن الآبار الأندلسي ، أو نجد بعض الإشارات المقتضبة عند ابن عذارى في القسم الخاص بالموحدين ، أو ما وجدناه عند عبد الواحد المراكشي في المعجب ، كما أشار البيذق إلى ابن قسى مكتفيا بالقول أنه من الثائرين في الأندلس .

(18)منها ثورة ابن حمدين ، أو ابن حسون في مالقة ، أو ثورة ابن ضحى في غرناطة ، أو ابن عبد العزيز في بلنسية ، أو أبي جعفر في مرسية .

(19)مثل تمرد والي فاس الذي رفض تقديم البيعة لعلي بن يوسف سنة 500 هـ.

(20)ويضيف الأستاذ حسن علي حسن قوله أن شهرة ابن تومرت في العالم الإسلامي ، وذكاؤه وعلمه سهل عليه نشر دعوته الجديدة ، التي كانت تناهض مبادئ دولة المرابطين ، حيث استخدم ابن تومرت كل الوسائل المتاحة للتأثير على أتباعه ، كما أن الكفاءة العسكرية لعبد المؤمن بن علي جعلت العسكر الموحدي يحسن التكيف مع القوات المرابطية ، حيث يختار الزمان والمكان المناسبين للحرب مع حسن الإمدادات لجيشه وعدم توفر ذلك للمرابطين (حسن علي حسن ، 1980 ، ص 44).

الكشاف الببليوغرافي

أولا: القران الكريم .

ثانيا: المصادر:

1) -ابن الأثير ،أبو الحسن علي بن محمد الشيباني الجزري : الكامل في التاريخ ، تحقيق محمد يوسف الدقاق ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1987 ، ج9 .

البكري ، أبو عبيد الله : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك) ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، د . ت .

2) -البيذق ،أبو بكر بن علي الصنهاجي : أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1971 .

3) ابن الخطيب ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الغرناطي :

4) -الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، ط 1 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1977 .

5) -أعمال الأعلام - فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام - ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، ط 2 ، دار المكشوف ، بيروت ، 1956 .

6) -ابن خلدون ، عبد الرحمان :تاريخ ابن خلدون - المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر - ، تحقيق : خليل شحادة و سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، 2000 ، ج6 .

7) -ابن خلكان ،أبو العباس احمد بن محمد، البرمكي : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1994 ،ج5 .

8) الخوارزمي ، أبو بكر جمال الدين : السلطان وأسرار الوزارة ، تحقيق : السحاب احمد الطحان ، ط 1 ، دار الكلمة ، مصر ، 2001 .

9) الدواداري ، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك :كنز الدرر وجامع الغرر- قسم دولة بني أيوب-، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، منشورات المعهد الألماني للآثار ، القاهرة، 1972.

10) -الذهبي ،أبو عبد الله محمد بن احمد التركماني الدمشقي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق: شعيب الارناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985 ، ج 20 .

11) -ابن أبي زرع ،أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1972 .

12) -الزركشي ،أبو عبد الله محمد بن إبراهيم : تاريخ الدولتين الموحديةوالحفصية ، تحقيق : محمد ماضور ، المكتبة العتيقة ، تونس ، 1966 .

13) -ابن سعيد المغربي ،أبو الحسن علي بن موسى المذحجي الغرناطي : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق : شوقي ضيف ، ط 4 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1995 ، ج1 .

14) -السلاوي ، أبو العباس احمد بن خالد الناصري :الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق : جعفر الناصري ومحمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1994 ، ج 1 ، ج 2 .

15) -عبد الواحد المراكشي ، أبو محمد بن علي التميمي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق : عمران المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1998 .

16) ابن عذاري المراكشي ،أبوالعباس احمد بن محمد :

17) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ، إحسان عباس ، ط 3 ، دار الثقافة ، بيروت ، 1983 ، الجزء الرابع (قسم المرابطين).
18) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق : محمد إبراهيم الكتاني وآخرون ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1985 ، الجزء الخامس (قسم الموحدين).
19) الفازازي ، أبو زيد عبد الرحمن بن أبي سعيد : آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي - نصوص أدبية من القرن السابع الهجري جمعها بعض تلاميذه في حياته - ، تحقيق : عبد الحميد عبد الله الهرامة ، ط 1 ، دار قتيبة ، بيروت ، 1991 .
20) ابن فرحون ،أبو الوفا إبراهيم بن علي اليعمري المدني : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق : مأمون بن محي الدين الجنان ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1996 .
21) ابن القاضي ،أبو العباس احمد بن محمد المكناسي: جذوة الاقتباس – في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس – دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1973 ، ج1.
22) ابن القطان ، أبو محمد حسن بن علي الكتامي : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، تحقيق : محمود علي مكي ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 .
23) المقري ،أبو العباس احمد بن محمد القرشي التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1988، ج2 .
24) مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق : سعد زغلول عبد الحميد ، ط 2 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1986 .
25) مؤلفمجهول :الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق : سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، ط 1 ، دار الرشاد الحديثة ، الدر البيضاء ، 1979 .
26) النباهي ،أبو الحسن علي بن عبد الله الجذامي المالقي : تاريخ قضاة الأندلس - المعروف بكتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا - ، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي ، ط 5 ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1983 .
27) النويري ، أبو العباس احمد بن عبد الوهاب التميمي القوصي : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق : علي بوملحم ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2004 ، ج24 .

ثالثا: المراجع :

1) -أشباخ ، يوسف : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة : محمد عبد الله عنان ، ط 2 ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، 1996 ،ج 1 .
2) بولقطيب ، حسن : جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين ، مطبعة النجاح الجديدة ، الرباط ، 2002 .
3) -حسن علي ، حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ،عصر المرابطين والموحدين ، ،ط1 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، 1980 .
4) -دندش ، عصمت عبد اللطيف : الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين - عصر الطوائف الثاني - ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1988 .
5) -سالم ، عبد العزيز : المغرب الكبير ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981 ، ج 2 .
6) الصلابي ، محمد : دولة المرابطين ، دار ابن الجوزي ، القاهرة ، 2007